

تمهيد:

وُصِفَت إحدى النصوص التراثية بأنها كانت مكتوبة على الجلد الأحمر، أما الخط فاختر له أن يكتب باللون الأسود فتحلى الموصوف بجمالية المبصر، حتى تجند له من يصفه من شدة تأثيره على الناظرين إليه، لقد عول هذا النص على الزينة الظاهرة المتولدة من مجموع الآليات الحاملة للنص، وهي زينة مستوحاة من زمن النشأة ومكان التشكل، إنه العصر الأندلسي تحديدا مدينة غرناطة حيث الفن من أولوية أولوياته الشكل، وهذا الموصوف كان رسالة بعث بها ملك غرناطة إلى ملك المغرب، وعليه، فما هو مفهوم الرسالة لغة واصطلاحاً؟ إذا استمر الاهتمام بالرسائل الأدبية في العصر الحديث فما هي أسباب بعثها من جديد؟ وكيف كانت نشأة هذا الفن النثري الحديث؟ وما هي أبرز خصائصه؟

أولاً- مفاهيم أولية

1- مفهوم الرسالة لغة:

ترجع المادة في لسان العرب إلى رَسَلَ، وقد أرسل إليه، والإرسال هو التوجيه، والاسم الرسالة والرسالة والرسول والرسيل، أما الرسالة فالجمع منها الرسائل، و"الرسول بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر¹، ومعنى الرسول "في اللغة الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذاً من قولهم جاءت الإبل رسلاً أي متتابعة..، وأرسلت فلانا في رسالة فهو مُرسلٌ ورسولٌ"²، حسب تقديرات ابن منظور فإن دلالة هذه الوحدات المعجمية قائمة على معنى متابعة الخبر دون انقطاع.

2- مفهوم الرسالة اصطلاحاً:

فرق التونجي في معجمه بين الرسائل التي يتداولها العامة من الناس والرسائل الأدبية، أما الأولى فهي "ما يكتبه المرء إلى صديقه أو أهله، وتكون موجزة محدودة الموضوع، سهلة الأسلوب خالية من التأنق اللفظي غالباً"³، أما الرسائل الأدبية فهي "توع من الكتابات أخذ طابعا أدبيا متميزاً"⁴، على الرغم من كون هذا المفهوم متسم بالافتضاب إلا أنه مفهوم دقيق وشامل لكل أساسيات بناء الخطاب الرسلي، مع العلم أن التونجي قد جعل له أنواعا وفصل فيها.

ثانياً-أسباب إحياء الرسائل في العصر الحديث:

أ-نشوء العلاقات بين الأدباء في العصر الحديث: وهذا الذي كشفت عنه مجموع الرسائل بين مي و خليل جبران، الرافي و أبو رية، الرافي و مي، خليل جبران و ميخائيل نعيمة، العقاد و مي، أمين الريحاني و الياس أبو شبكة، شوقي و حافظ، محمد عبده و سليم البستاني.. إلخ ، و بمجرد الكشف عن تلك الرسائل رفعت الحجب عن مجموع العلاقات الكامنة وراء ذلك الترسل و قد أفرزت أنواعاً من العلاقات انطلاقاً من مضامين الخطابات الرسلية.

ب-الصّالونات الأدبيّة في العصر الحديث: ومن أشهرها على الإطلاق صالون مي زيادة في القاهرة، و بفضلها ساهم الأدباء في تطور الرسائل الأدبية، فها هو الرافي يكتب رسالة لمي لمصالحتها غير أن النسيج الرسلي أفصح "أنه بعث بها إلى صديق له سوري تغضب عليه و ما هناك سوى صديقه.. مي الغضبي، ثم أثبتها في كتابه أوراق الورد سنة 1932، و قد غير الخطاب من المذكر إلى المؤنث"⁵.

ثالثاً- مراحل نشأة الرسائل الأدبيّة في العصر الحديث وخصائصها:

عرف العصر الحديث الرسائل الأدبية⁶ و قد شهدت طوال هذه الفترة غزارة في الإنتاجية، و انتشاراً في مقروئيتها، و استمرارية مع انتسابية مدت بوشائج التواصل مع الأنموذج التراثي في عصوره الزاهية مسمى و نوعاً و خاصية. أطلق عليها عبد القادر القط مصطلح الرسائل الأدبية⁷، في حين المقدسي سماها بفن الرسائل⁸. أبقى الدارسون الخطابات الرسلية الحديثة على تقسيمها التراثي فتوزعت لديهم بين الرسائل الديوانية و من مسمياتها الرسائل السلطانية، الإدارية، و الرسمية⁹، في حين هناك من يسميها المنشورات الأميرية، و الديوانية، و الإنشائية¹⁰، أما النوع الثاني فيخص الخطابات الإخوانية. و عن نشأة الرسائل الأدبية في العصر الحديث فيمكننا القول بأنها مرت بمرحلتين هما :

1-مرحلة نسق السجعة:

مع بدايات العصر الحديث كانت الخطابات الرسلية محلاة بأسلوب السجعة كجزء من البنية اللغوية للنسيج الرسلي إذ لا يستقيم في المكاتبه إنشاءً إلا بحضوره و تعليل ذلك مرده قرب بدايات القرن التاسع عشر من صور الإبداع لعصر الانحطاط فلا فكاك إذا من التأثير ببعض خاصياته الأدبية و ما السجعة إلا واحدة منها، كما أن الإعلان عن بداية العصر الحديث لا يعني البتة التغير المفاجئ في الأسلوب الرسلي وإنما ليتطور هذا الأخير فإنه بحاجة إلى عديد تجارب امتدت على مدار القرن التاسع عشر

والنصف الأول من القرن العشرين حتى تتطور أساليب الرسائل الأدبية. ولما جاءت مرحلة حكم محمد علي أنتجت الرسائل الأدبية على يدي رافع رفاة الطهطاوي، فكان في رسائله "يؤثر عادة الأسلوب المسجوع، ويتألق في عبارته، ويحليها ببعض ألوان البديع وكان هذا الأسلوب المسجوع أول الأمر يبدو عليه التكلف وأثر الصنعة ثم خفت حدة هذا التكلف على مر الأيام بازدياد ثقافته، وكثرة مرانه على الكتابة، ونمو ثروته اللغوية"¹¹. استمرت إنشائية الخطابات الرسولية في عهد الخديوي اسماعيل ف"ما من أديب أو متأدب في هذه الفترة حتى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلا واهتم بكتابة الرسائل يظهر فيها أدبه ويشهر براعته.. فقد ظلت الرسائل موضع احتفاء الكتاب وتأنقهم"¹²، فتلونت إنتاجيتها بين الرسائل الديوانية والإخوانية، التزموا فيها بمواضيعها المعهودة، كما ساهموا بشكل أو بآخر في تطوير الأساليب الإنشائية فيما أنتجوه من رسائل. من رواد الرسائل الأدبية لهذه المرحلة نذكر منهم مصطفى نجيب، ابراهيم المويلحي، ابراهيم اليازجي، محمد عبده، عبد الله النديم، في حين كان لمحمد عبده تلامذة منهم أديب اسحاق، توفيق البكري، وأبرز من كان له الأثر القوي في فن الترسل شخصيتان فقط هما جمال الدين الأفغاني، وشيخ المترسلين عبد الله فكري 1834-1889م، شكل الرجلان اتجاهين رسلين، أما الأول فيقوده عبد الله فكري، وساعده على هذا أنه شغل كاتباً في الديوان فعمل على إحداث الكثير من التغييرات سواء على مستوى الهيئة الديوانية أو النص الرسولي كإنتاج، ومن بين تلك التأثيرات والتغييرات التي تمت على يديه أنه "نقل الديوان في مصر من التركية إلى العربية، وقد سن للكتاب طريقة الكتابة التي تصدر عن مختلف فروع الديوان ومن حسن الحظ أنه كان أديباً بالطبع وله ذوق شاعر"¹³، وبهذا الصنيع أعاد الإنشاء إلى خط سيره الأول ونقصد بذلك الكتابة باللغة العربية، كما وضع للأدباء "النموذج.. بمحاكاته لكتاب القرنين الثالث والرابع فנסجوا على منواله في مختلف رسائلهم"¹⁴، وعمل على استثمار الملكة الإبداعية في فن الرسائل، مما وفر أدبية النص وأهم ما فيها ضمان استمرارية البناء على نسق السجعة وقد استوحيت مرجعية صورتها من صور النصوص التراثية، فكان الناتج رسائل سجعت على جمل قصيرة، وأخرى سجعت على جمل طويلة، غير أن الآكد عندنا ولا خلاف فيه، هو أن الرسائل الأدبية لمرحلة حكم الخديوي اسماعيل والمعولة على نسق السجعة هي الأغلب إنشاء في هذه المرحلة. تبع عبد الله فكري في هذا الأسلوب مجموعة من المترسلين الذين تحولوا إلى مدافعين عن أسلوب السجعة "ومن الأدباء الذين اشتهروا برسائلهم الأدبية في تلك الحقبة: حمزة فتح الله، وعبد الكريم سلمان، وأديب اسحق، والشيخ أحمد مفتاح، ومحمد وحسن توفيق العدل، ومحمود أبو النصر، وحفني ناصف، وابراهيم اليازجي، ولكل منهم شخصيته وتفكيره، وهم يختلفون كذلك في ثقافتهم فمنهم اللغوي ومنهم القانوني

ومنهم الأديب، ومنهم العالم، وإن حاول كل منهم أن يصطنع الأسلوب الأدبي في رسائله¹⁵. أما الاتجاه الثاني فيمثلته جمال الدين الأفغاني وقد تبنى فيه المسار التغييرى على مستوى الأسلوب الرسلى، فقد دعا الأفغاني إلى ضرورة تخليص النثر الأدبي في عمومته من نسق السجعة واستعاض عن ذلك بالأسلوب المرسل، كما حرص تلامذته على ذلك وعلى رأسهم محمد عبده. نضجت فكرة التخلي عن الأسلوب المسجوع عند جمال الدين الأفغاني فاستجاب له الأدباء والكتاب ولبوا النداء في المقالة، القصة، والرواية، فتحررت الكتابة الأدبية على وجه الخصوص من نسق السجعة إلا مع الرسائل الأدبية إذ بقي مشروع التخلص من أسلوب السجعة وقف التنفيذ، والدليل على ذلك رسالة جمال الدين الأفغاني وهي رسالة إخوانية أنشأها في ثيمة العتاب وجهها إلى عبد الله فكري بعد أن بلغه نبأ أحدهم ذمه في مجلس الخديوي اسماعيل وعلى مسمع من فكري الذي سمع فسكت ولم يدافع عن الأفغاني جاء فيها: "مولاي إن نسبك إلى هواده في الحق وأنت - تقدست جبلتك - فطرت عليه، وتخوض الغمرات إليه..، وأنا موقن أنك لا زلت على السداد غير مفرط ولا مفرط..، لأن العالم والجاهل.. أجمعوا على طهارة سجيئك ونقاوة سريرتك، واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت، والحق معك أينما كنت، لا تقارن المكارم ولو اضطرت..، ثم إني يا مولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلما عليكم وداعيا لكم. والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك.

جمال الدين الأفغاني 8 صفر 1300¹⁶

2-مرحلة الأسلوب المرسل:

تبدأ هذه مرحلة مع بداية النصف الأول من القرن العشرين وتنتهي قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية، وأول ما نلاحظه فيها هو استمرارية الإنتاجية للخطابات الرسلية على مدار ما تبقى من زمن العصر الحديث، فضلا عن ميل الكتاب أكثر إلى القالب النثري في العملية الإنشائية للرسائل الأدبية¹⁷، ومن غزارة ما حبروا حتى استقلوا بعملية الترسُّل ودليل ذلك المدونات الرسلية التي قد تصل إلى مدونة كاملة أو أكثر من ذلك للأديب الواحد، والأنموذج على هذا الجزء التاسع من المجموعة الكاملة لنعيمة حيث استقل كله في الترسُّل فقط¹⁸، كما نضيف مدونة أخرى باسم جبران حيث جمع فيها رسائله التي كان يبعث بها إلى مجموع المقربين والأصدقاء والأحبة¹⁹، أما الرافي فقد ذكر له أربع مدونات حررت في الترسُّل فقط وهي: حديث القمر 1912م، رسائل الأحزان 1924م، السحاب الأحمر 1924، أوراق الورد 1930م²⁰، ونستزيد على ما ذكر مدونة رسائل الرافي التي نشرها أبو رية بعد أن جمع كل الرسائل التي كان يرسلها إليه الرافي قبل وفاته قال عنها: "ولقد كان نشر هذه الرسائل من أمانى العزيزة؛ لأن هذا

مما يجب علي أدائه للرافعي رحمه الله ولجميع الناطقين بالضاد من جميع أقطار الأرض²¹. ومن أهم النقاط التي نسجلها في هذه المرحلة هو تخلي إنشائيو هذه المرحلة - في غالبيتهم - عن أسلوب السجعة، ودعوا إلى التحرر منه وتبنوا الدعوة إلى ما أطلق عليه سمية الأسلوب المرسل²²، وأهم جهد يحتسب لهذا الجيل الذي راد الحركة التغييرية هو عملهم على تحيين الدعوة التحررية على مستوى النسيج النصي فطبعوا أنستجهم الرسلية بالأسلوب المرسل وهذا الذي فشل في تحقيقه الأفغاني وتلامذته أيام عهد الخديوي اسماعيل، وقد أخضعوا لذلك جل نتائجهم الرسلية المتعددة والمتنوعة الثيمة، ومن ذلك موضوعة التهئة وفيها نقراً رسالة أحمد أمين حبرها لخليل مردم يهنئه على نجاحه يوم كان وزيراً للمعارف السورية، وقد أنشأها في القاهرة 4 / 4 / 1943م²³، وهناك رسائل في الاعتذار وأخرى في الشكوى كتلك التي حبرها جبران في نيويورك سنة 1920 وجهها إلى ميخائيل نعيمة أو كما يحلو لجبران أن يناديه: عزيزي ميشا، وقد حملها شيئاً من الشكوى عن تسويق أعضاء المجلة²⁴، وبعض الرسائل الأدبية تجاوزت المؤلف إلى المغاير فغدت الرسائل الإخوانية على وجه الخصوص، فضاء للاشتغال على قضايا نقدية لا سيما مع الريحاني ومن نماذجه رسالة أفاعي الفردوس وجهها سنة 1938 إلى إلياس أبو شبكة بمناسبة إصدار هذا الأخير ديوانه أفاعي الفردوس فأهدى إلياس نسخة إلى الريحاني وبعد قراءة المدونة وجه من فوره الريحاني رسالة نقدية إلى الشاعر أبو شبكة²⁵. وفي زاوية من الإنتاجية الرسلية أثبت كتاب الرسائل الأدبية قدرتهم على الخوض بالأسلوب المرسل غمار إنشائية الرسائل الطوال في حين تقصر أخرى، فرسالة أمين الريحاني كتبها إلى السيد مصطفى بك عبد الرزاق وزير الأوقاف من لبنان الفريكة في 25 حزيران سنة 1938 امتدت من الصفحة 364 إلى غاية الصفحة 371، فكانت من أطول ما أنشأ الريحاني من خطاب رسلي تحكي بالتفصيل حوادث المحنة التي مرت بها مي زيادة وما أنجز لحل قضيتها، وما توجب استكمالها فيها لإنقاذها مرات أخرى، وقد أكد الريحاني في متن الرسالة على مدى مساهمة الدكتور زيادة - وهو شقيق مي - على مساعيه لبقاء الحجز على مي، فكانت الرسالة إلى المرسل إليه توضيحية لمد يد الخلاص الأخيرة من الحجر على مي زيادة وتعزيز فكرة الإذن لها بالخروج من لبنان إلى مصر ولن يتحقق هذا إلا بمساعدة مصطفى بك بإعطاء هذا الإذن لمي²⁶. كما أننا نقراً رسائل أدبية قصيرة بل نقول هي من الاقتضاب بمكان ولكنها معبرة، ومن ذلك رسالة مي زيادة أرسلت بها إلى آل الريحاني لما وصلها خبر نعي أمين الريحاني فكاتبت الأسرة برسالة تعزية جاء فيها:

"القاهرة في أواخر سنة 1940

أسرة الريحاني - الفريكة -

يا آل الريحاني

أفي وسعكم أن تعزوني في فقيدي وفقيدكم وفقيد الشرق؟

مي²⁷.

إن الحديث عن نتاجات رسلية بأسلوب مرسل لا يلغي من حلقة الإبداع الرسلي حضور أصحاب نسق السجعة وإن كانوا قلة يقودهم الرافعي بإنشائيته ذات الجرس الموسيقي، المعتمتي بالنعمة²⁸.

على العموم، هذه كانت مسيرة الخطاب الرسلي في الوطن العربي إبان العصر الحديث حيث تبقى كل النماذج الرسلية على مدار القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين خاضعة لسلسلة من الإنتاجات التي شهدت غزارة واستمرارية وتطوراً في الأسلوب كخصيصة تميز كل مرحلة من مراحل النشأة، والأهم هو أننا نتحدث عن النموذج الرسلي الحديث كجزء ممتد إلى تراث الأمة العربية العريق.